المحاضرة الأولى

تدوين القرآن وجمعه

الموضوعات

نزول القرآن

الحكمة من نزول القرآن منجما

أول وآخر مانزل

معنى جمع القرآن

مراحل كتابة وتدوين القرآن

الفصل الأول

نزول القرآن الكريم منجماً

تمهيد :

البحث في نزول القرآن بحثٌ مهمّ وجليل ، لأن العلمَ به أساس للإيمان بالقرآن وأنه كلام الله المنزل ، وأساس للتصديق برسالة محمد ﷺ، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يُوحى .

أ ـ تنزلات القرآن الكريم :

للقرآن الكريم تنزلات ثلاثة :

الأول : تنزله إلى اللوح المحفوظ ، ودليل ذلك قول الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١ ـ ٢٢] .

الثاني : تنزله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ودليله قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣] . وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١] وقوله: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

وأخرج النسائي والحاكم عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : فُصِلَ القرآن من الذكر فوُضع في بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعلَ جبريلُ ينزلُ به على النبيِّ ﷺ (١) .

(١) رواه النسائي في الكبرى (٧٩٩١) والحاكم في المستدرك (٢/٢٢٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وأخرج النسائي والحاكم من طريق داود بن أبي هند، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : أُنـزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أُنزل بعد ذلك في عشرين سنة . ثم قرأ : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾[1] [الإسراء : ١٠٥ - ١٠٦] .

الثالث : تنزل القرآن من بيت العزة في السماء الدنيا على قلب النبيّ ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام منجماً ، قال الله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥] .

ب - نزول القرآن منجماً :

تتابع نزول القرآن منجماً ، فكانت تنزل الآية أو الآيتان أو الآيات في أوقات مختلفة ، ودليل ذلك من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] . ويُضاف إلى هذا الدليل القرآني الصريح ، أنه قد ثبت ثبوتاً قاطعاً في السنة والسيرة النبوية أن القرآن لم ينزل على رسول الله جملة واحدة ، وإنما نزل مفرَّقاً خلال مدة بعثته المباركة والتي قدرت بثلاثة وعشرين عاماً تقريباً ، قال السيوطي في « الإتقان » : الذي استقرئ من الأحاديث الصحيحة وغيرها : أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة ، خمس آيات وعشراً ، وأكثر وأقلّ ، وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة[2] ، وصحَّ نزول عشر آيات من أول المؤمنون جملة[3] ، وصحَّ نزول ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ [النساء : ٩٥] وحدها[4] ، وهي

(١) رواه النسائي في الكبرى (٧٩٩٠) والحاكم في المستدرك (٢/٢٢٢) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢) رواه البخاري في المغازي ، باب : حديث الإفك (٣٩١٠) .

(٣) رواه أحمد (١/٣٤) والترمذي في التفسير (٣١٧٢) والنسائي في الكبرى (١/٤٥٠) .

(٤) رواه أحمد (١/٣٤) والترمذي (٤٣١٦) .

بعض آية[١] ...

وكان هذا التنجيم في نزول القرآن سبباً في اعتراض اليهود والمشركين وتساؤلهم : لماذا لم ينزل القرآن كما نزلت التوراة جملة واحدة ؟ وقد أنزل الله عزّ وجلّ آية كريمة تُسجِّلُ هذا الاعتراض وتردُّ عليه ، وهي قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان : ٣٢] .

حِكَمُ نزول القرآن منجماً :

نستطيع أن نتعرَّف على حكم نزول القرآن منجَّماً من الآيتين الكريمتين : ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ ... ﴾ [الإسراء : ١٠٦] و ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان : ٣٢] اللتين ورد فيهما الردُّ على اعتراض المشركين واليهود بالحجة الدامغة ، كما أن هناك أسراراً لهذا التنجيم تُدرك بالعقل والاجتهاد ، وهذه الحكم والأسرار هي :

١ ـ تثبيت فؤاد النبيّ ﷺ :

وهذا ما صرَّحت به الآية ﴿ كذلكَ لِنُثَبِّتَ به فؤادكَ ﴾ وكان النبيّ عليه الصلاة والسلام بحاجة لهذا التثبيت وهو يواجه من الناس القسوة والنفور ، ويجد من الكثيرين في مكة الغلظة والجفاء والإصرار على الكفر ، مع رغبته الصادقة في هدايتهم إلى الحق ، فكان الوحي يتنزل على رسول الله ﷺ بين وقت وآخر فيشحذ من همته ويزيد من صبره وتحمله ، بل كان ينزل القرآن في أحلك الأوقات وأقسى الحالات شدة ، وإذا بالآيات تدعو رسول الله ﷺ إلى متابعة الطريق بكل صبر وثبات ، وتقصُّ عليه ما لقي الأنبياء من أتباعهم من قسوة وعناد ، قال تعالى : ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ

(١) الإتقان في علوم القرآن ؛ للسيوطي (١/١٣٧) تقديم وتعليق د . مصطفى ديب البغا ـ طبعة دار ابن كثير ودار العلوم الإنسانية ١٤١٤هـ .

﴿ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام : ٣٣ - ٣٤] .

قال أبو شامة : « فإن قيل : ما السرُّ في نزول القرآن منجماً ؟ وهلاَّ أُنزل كسائر الكتب جملة ؟ قلنا : هذا سؤال قد تولَّى الله جوابه فقال تعالى : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ أي لنقوي به قلبك ، فإن الوحي إذا كان يتجدَّد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشدّ عناية بالمرسل إليه ، ويستلزمُ ذلك كثرة نزول الملَك إليه وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصُر عنه العبارة ، ولذلك كان رسول الله ﷺ أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقياه جبريل »[1] .

٢ - تيسير حفظ القرآن وتسهيل فهمه :

وذلك لأن القرآن نزل على أمة تغلب فيها الأمية ، فلا تعرف القراءة والكتابة ، وإنما سجلها ذاكرتها ؛ قال تعالى في إثبات ذلك : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] . فكان من رحمة الله بهذه الأمة أن يَسّرَ لها حفظ القرآن وسَهّلَ عليهم فهم آياته التي تنزل مفرقة خلال فترات متقطعة من الزمن فيحفظونها ويفهمونها . وكأن القرآن بنزوله منجماً رسم للصحابة الكرام منهجاً تعليمياً طبقوه في حياتهم وتوارثه عنهم التابعون وهو التعلُّم التدريجي . أخرج البيهقي في (شعب الإيمان) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : تعلموا القرآن خمس

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/١٣٤) طبعة دار ابن كثير ١٤١٤هـ ، وأبو شامة : هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي فقيه شافعي ، له كتاب « المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز » توفي سنة (٦٦٥هـ) .

آيات خمس آيات[١] . وأخرج ابن عساكر عن أبي نضرة قال : كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة ، وخمس آيات بالعشي ، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات[٢] .

٣ ـ التدرج في التشريع :

قضت إرادة الله أن يتم الإصلاح الاجتماعي بصورة تدريجية ؛ لأنه ليس من الممكن أن ينقلب المجتمع الجاهلي الفاسد بين عشية وضحاها إلى مجتمع صالح ، فكانت آيات القرآن تراعي الانقلاب التدريجي ، وتراعي بناء الأسس الثابتة لهذا التغيير ، فنزلت أولاً الآيات المتعلقة بالعقيدة ودلائلها ، والآيات الداعية إلى محاسن الأخلاق ، حتى إذا آمن الناس وزكت نفوسهم نزلت آيات الحلال والحرام في تدرج حكيم . ويدل على ذلك ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر . لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنى[٣].

٤ ـ مسايرة الحوادث :

وإيجاد الحلول المناسبة للحوادث الطارئة ، لتكون آيات القرآن أوقع في النفس وألصق بالحياة ؛ ومن ذلك : لما توفي عبد الله بن أُبيّ ـ رأس المنافقين ـ دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف قال عمر : أعلى عدوِّ الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ يُعدِّدُ أيامه . ورسول الله ﷺ

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٩٥٩) .
(٢) ذكره السيوطي في الإتقان (١٣٧/١) وعزاه لابن عساكر .
(٣) رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٧٠٧) والمفصل : من أول سورة (قٓ) إلى آخر القرآن . وانظر فتح الباري (٤٣/٩) .

يبتسم ، ثم قال له : « إني قد خُيِّرتُ ، قد قيل لي : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غُفر لزدت عليها » . ثم صلَّى عليه رسول الله ﷺ ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه ، قال عمر : فعجبتُ لي ولجرأتي على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ... ﴾ [التوبة : ٨٤] فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعد حتى قبضه الله عزَّ وجلَّ[1] .

وحين تخلَّف نفر من المؤمنين الصادقين في غزوة تبوك ، وأقاموا بالمدينة ، ولم يجد رسول الله ﷺ لديهم عذراً ، هجرهم وقاطعهم ، حتى ضاقوا ذرعاً بالحياة ، ثم نزل القرآن بقبول توبتهم ، فكان درساً في عدم التخلف عن الجهاد لا يمكن أن ينساه أو يتجاهله أي مسلم ، قال تعالى :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٧ - ١١٨][2] .

٥ - الدلالة القاطعة على أن القرآن كلام الله وحده :

لقد عرفت أن هذا القرآن نزل مفرقاً على رسول الله في مدة ثلاثة وعشرين عاماً ، تنزل منه الآية أو الآيات في فترات زمنية مختلفة ، ومع ذلك فإنك تجده من أوله إلى آخره محكم السرد ، دقيق السبك ، متين الأسلوب ، قويَّ الاتصال ، آخذاً بعضه

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٣٩٤) و (٤٣٩٥) .

(٢) رواه البخاري في المغازي (٤١٥٦) والتفسير (٤٣٩٩ ــ ٤٤١٠) .

برقاب بعض في سوره وآياته وجمله ، وكأنه عقد فريد نظمت حباته بشكل دقيق وفريد بما لم يُعهد له مثيل من كلام البشر لا من قبل ولا من بعد . قال تعالى : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] . وهذا التناسق وعدم الاختلاف في أسلوب القرآن أكبر دليل على أنه كلام الله العليم الحكيم ؛ إذ لو كان من كلام المخلوقين لظهر فيه الاختلاف من سنة إلى أخرى ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء : ٨٢] . وحتى أحاديث النبيّ ﷺ رغم أنها في ذروة الفصاحة والبلاغة بعد القرآن ، فإنها لا تنتظم حباتها في كتاب واحد سلس العبارة فيه وحدة وترابط كالقرآن ، أو ما يدانيه في الاتساق والانسجام .

٦ – توثيق وقائع السيرة النبوية :

والدلالة من خلال الآيات القرآنية المنجمة على أن محمداً ﷺ خاتم النَّبيِّين ، وتشكُّل السيرة النبوية من خلال الحوادث ، وضمّها إلى قصص الأنبياء ، وسير المرسلين ، وحياة الأمم السابقين[1] ، وتوثيق ذلك إلى درجة التواتر ، ورسم القواعد التي تُبنى وفقها السيرة النبوية بوصفها المقدمة للتاريخ الإسلامي منذ جيل الصحابة وحتى عصرنا الحاضر .

* * *

(١) للتوسع في توضيح هذه الحكمة انظر كتاب « مدخل إلى تفسير القرآن » للدكتور عدنان زرزور (ص٩٧) .

أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل

اختلف العلماء في أول ما نزل على الرسولﷺ من آيات:

١- فذهب بعضهم الى أنّ أول الآيات نزولا هي الآيات الخمس الأولى من سورة العلق في قوله تعالى:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

ودليل هذا ما روته السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت:

(أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء.. فجاءه الملك فقال: إقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ؛ قلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطني الثالثة ثم ارسلني فقال: [إقرأ باسم ربك الذي خلق...])[1].

٢- ذهب آخرون الى أن أول الآيات نزولا هي قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ..﴾سورة المدثر ١/ ٥

ودليل هذا ما رواه البخاري وغيره، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله: اي القرآن انزل أول؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: أنبئت أنه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.فقال: لا أخبرك إلا بما قال رسول اللهﷺ. قال رسول اللهﷺ: جاورت في حراء، فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وعن شمالي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض،

(١)رواه البخاري في باب: كيف كان بدء الوحي الى الرسولﷺ ١/ ٣.

فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا عليّ ماءاً بارداً وانزل عليّ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[1].

وقيل غير ذلك. والقول الأول هو الأصح.

اما آخر ما نزل من القرآن ففيه أقوال كثيرة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[2]. سورة البقرة ٢٨١

٢- آية الربا وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ...﴾[3].سورة البقرة/ ٢٧٨-٢٨٠.

٣- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ﴾[4]. سورة البقرة ٢٨٢.

ويمكن الجمع بين هذه الروايات الثلاث: بان نزول هذه الآيات كانت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف. فأية الربا، وآية(واتقوا يوماً) وآية الدين كلها وردت في قصة واحدة، وقد اخبر كل راو عما اعتقده بأنه آخر ما نزل[5].

٤- قوله تعالى:﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ ...﴾[6]. سورة النساء/ ١٧٦. وقد حمل ذلك على أنها آخر آية تتعلق بالمواريث.

---

(١)رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن (سورة المدثر)٦/ ٧٥.

(٢)رواه النسائي وابن أبي حاتم. انظر: تفسير الطبري ٣/ ١١٤-١١٥ الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ مطبعة مصطفى ألبابي الحلبي/ مصر.

(٣)رواه البخاري في كتاب التفسير(باب: واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله)

(٤)انظر: الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي٢/ ١١٧. الطبعة الاولى١٤٠٣-١٩٨٣. دار الفكر بيروت.

(٥)انظر: البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٦٨.

(٦)رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن (باب: يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة)

٥- قيل: آخر ما نزل سورة المائدة[١]. أي آخر سورة في الحلال والحرام.

٦- وقيل آخر ما نزل سورة (النصر)[٢]....

وهذه الأقوال كلها محتملة، وقد ذكرت من الرواة على سبيل غالبية الظن، اذ ربما كل من قال قولاً كان قد سمعه من النبيﷺ قبيل مرضه الذي توفي فيه بقليل، مع أن غيره قد سمع منه غير ذلك، لنزول الوحي عليه بقرآن فيما بعد.

وأرجح الأقوال: أن آخر الآيات نزولا قوله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٣].

فوائد معرفة أول الآيات نزولا وآخرها

هناك فوائد في معرفة أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل، منها:

١- قضية التدرج بالأحكام والناسخ والمنسوخ. فإذا وردت آيتان في موضوع واحد، ويغاير حكم كل منهما الحكم الآخر، ولا يمكن التوفيق بين الآيتين بأية طريقة كانت...عند ذلك تكون الآية المتأخرة ناسخة للآية المتقدمة.

٢- معرفة تاريخ التشريع الإسلامي، والوصول الى حكمة الإسلام في سياسة الناس.

(١)الدر المنثور في التفسير المأثور ٣/ ٣.

(٢)رواه مسلم في كتاب التفسير/ حديث ٣٠٢٤ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ٤/ ٢٣١٨.

(٣)لزيادة الاطلاع انظر: مناهل العرفان ١/ ٩٦-١٠٠

جمـــع القـــرآن

يطلق لفظ (جمع القرآن) على معنيين.

الأول: بمعنى حفظه عن ظهر قلب. وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ سورة القيامة / ١٧.

الثاني: بمعنى كتابته حروفاً وكلمات وآيات وسوراً، والقران الكريم تمت كتابته في الصدر الإسلامي الأول ثلاث مرات:

الأولى: في عهد النبيﷺ، والثانية: في عهد أبي بكر الصديق، والثالثة: في خلافة عثمان بن عفان، وسنتحدث في كل منها:

المعنى الأول: **حفظ القران في الصدور**

لما كانت الآيات تنزل على رسول اللهﷺ فانه يقوم بحفظها، ويقرأها و يحفظها لمن عنده من الصحابة. وهكذا حتى جمع الرسول الكريم القرآن كله في قلبه: فكان هو أول الحفاظ. وكان عليه الصلاة والسلام يعرض القرآن على جبريل في رمضان في كل عام. فلما كان العام الذي قبض فيه النبيﷺ عرضه مرتين.

أما الصحابة الكرام، فقد اهتموا بحفظ القران كل اهتمام. ويدلنا على ذلك أن عدداً ليس بالقليل من صحابة رسول الله -رضي الله عنهم- كان قد حفظ القرآن كله، بل إن المرأة المسلمة كانت ترضى أن يكون مهرها سورا من القرآن الكريم يحفظها الزوج لزوجته.

ويدلنا على كثرة حفاظ القرآن ان أربعين منهم قد استشهد في السنة الرابعة من الهجرة في حادثة(بئر معونة)[1]، وقد استشهد منهم في عهد أبي بكر (يوم اليمامة) سبعون..! وهكذا، فلم يلتحق الرسولﷺ بالرفيق الأعلى، حتى كان حفاظ للقرآن الكريم كله.

---

(١)بئر معونة:بئر في نجد، يبعد ١٦٠ كم عن المدينة. وقد جاء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة الى المدينة، فدعاه الرسول الى الإسلام فلم يسلم، ووعد أن يجير من يرسله لدعوة الأعراب في نجد، فأرسل الرسول وفداً من سبعين او اربعين رجلاً من المسلمين. فلما وصل بئر معونة غدر بهم عامر بن الطفيل فقتل رسولهم فصاح فزت ورب الكعبة، وأحاط بهم الأعراب من رعل وذكوان، ودافع القراء عن أنفسهم، فاستشهدوا سوى عمرو بن أمية الضمري، عاد وأخبر الرسول الخبر.

المعنى الثاني: **كتابة القرآن الكريم في عهد النبيﷺ**

كان النبيﷺ حريصا على كتابة كل ما ينزل عليه من آيات، لذلك اتخذ عليه السلام كتاباً بلغ عددهم اثنين وأربعين كاتباً منهم الخلفاء الاربعة، ومعاوية بن ابي سفيان، وزيدبن ثابت، وابي بن كعب.. وكان عدد كتاب الوحي في المدينة اكثر من كتاب الوحي في مكة[1]، فكتب كتاب الوحي القران في العسب: (وهو جريد النخل)، واللخاف: (وهي صفائح من الحجارة) والرقاع(اي الجلد او الورق)، والأكتاف (وهو عظام الكتف في الشياه او الإبل)، والاقتاب (وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه)، والاديم (وهو الجلد المدبوغ)، وكان الصحابة يطلقون على هذه الاشياء بعد الكتابة عليها اسم (الصحف)، وكانت هذه الصحف توضع في بيت النبيﷺ. وكان من الصحابة من يكتب بعض سور القرآن لنفسه، تدلنا على ذلك قصة إسلام عمر بن الخطابرضي الله عنه، اذ دخل في بيت أخته فاطمة وزوجها، وكان خباب بن الأرت يقرئهما سورة (طه) في صحيفة مكتوبة. كما يدلنا على ذلك حديث: (نهىﷺ أن يسافر بالقرآن الى ارض العدو)[2]. أي يسافر بحمل صحيفة من القرآن الكريم. فلم ينتقل الرسولﷺ الى الرفيق الأعلى إلا بعد أن كتب القرآن كله في السطور وحفظ في الصدور.

لماذا لم يأمر النبيﷺ بجمع القرآن في حياته؟

ذكر العلماء أسباباً لذلك، منها:

١- أراد النبي ﷺ أن يجعل الصحابة اهتمامهم بحفظه في الصدور، وترتيله والتعبد به.

---

(١)التراتيب الادارية للكتاني١/ ١١٦ دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢)رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب: كراهية السفر بالمصاحف الى ارض العدو)، ومسلم في كتاب الإمارة(باب: النهي ان يسافر بالمصحف الى ارض العدو).

٢- لم يكن هنالك داع لجمعه في مصحف واحد او مصاحف، ذلك أنّ الداعي قد وجد في عهد ابي بكر وعثمان كما سنتحدث في ذلك قريبا ان شاء الله: فقد كان حفظة القرآن كثرة كاثرة....

٣-كان جبريل عليه السلام ينزل على النبيﷺ بعد أن اكرمه الله بالرسالة، ولم ينقطع الا بوفاته صلوات ربي وسلامه عليه. فلم يأمر النبي بجمع القرآن، لان آيات كريمة اخرى قد تنزل مستقبلا.

كتابة القرآن في عهد أبي بكرؓ

قبيل أن يلتحق النبيﷺ بالرفيق الأعلى، ارتدَّت قبائل عربية كثيرة عن الإسلام، الأمر الذي جعل النبي عليه السلام يجهز جيشا لمحاربتهم، ووضع على قيادته (أسامة بن زيد)ؓ، لكن الأجل لم يمهل النبي الكريم، فلبى نداء ربه، وتولى الامر ابو بكر الصديق في شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، فنفذ ما عزم عليه رسول الله من إرسال الجيش لمحاربة المرتدين ومدعي النبوات الكاذبة. وفي حرب اليمامة وحدها التي أذل الله فيها مسيلمة الكذاب وجمعه، كان قد استشهد من المسلمين (يومئذ) مائتان وألف، وقتل من حفاظ القرآن -آنذاك- سبعون. ولقد كان عمر بن الخطابؓ ذا بصيرة نافذة، فأقترح على أبي بكر أن يأمر بجمع القرآن. وبعد نقاش بينهما اقتنع ابو بكر برأي عمر، فكلف زيد بن ثابت بهذه المهمة قائلاً له:

(إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول اللهﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه)[1].

ويصعب الامر على زيد، اذ يشعر بعظم المهمة التي كلف بها فيقول:

(١)رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: جمع القرآن) ٦/ ٩٨

(فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما امرني به من جمع القرآن)[1].

ولقد قام زيد ومعاونوه بهذه المهمة خير قيام: فنقلوا القرآن من تلك المفردات الى صحف من نوع واحد بمقياس واحد تحفظ بين دفتين حفاظاً له، وما كتبت آية من آيات القرآن إلا بشاهدين، ليكون أوفى في التثبت والتيقن. ولم يكتفوا بالحفظ وحده، بل كانوا يقابلون ذلك بما كتب. وقد تم جمع القرآن في عهد أبي بكرﷺ خلال سنة واحدة على وجه التقريب. ويأتي زيد الى أبي بكر فيسلمه المصحف. ويحتفظ أبو بكر بذلك المصحف طوال خلافته. وقبيل موته عهد به الى المرشح للخلافة من بعده عمر بن الخطابﷺ. وظل المصحف لدى سيدنا عمر طوال حياته، ثم سلمه الى ابنته حفصة في آخر لحظات حياته، اذ لم يكن الخليفة الثالث قد بويع بالخلافة آنذاك.

جمع القرآن الكريم في عهد عثمانﷺ

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد سيدنا عثمان بن عفانﷺ، واتسعت حركة نسخ المصاحف في الأمصار، وذهب القراء في شتى الأقطار والأمصار يعلّمون الناس القرآن. وقد أخذ كل قطر بقراءة واحد من الصحابة ممن أقام بينهم: فكان أهل الشام يقرؤون بقراءة (أبيّ بن كعب)، وأهل الكوفة يقرؤون بقراءة (عبد الله بن مسعود)، ويقرأ أهل البصرة بقراءة (أبي موسى الأشعري). وكان بين القراء شئ من الاختلاف في وجوه القراءة وطريقة الأداء، اذ كان ذلك مرخصاً به في عهد الرسولﷺ، لكن المسلمون الجدد لم يتفهموا حقيقة هذه الرخصة على وجهها الصحيح، فحصل نزاع وشقاق بينهم، وادعى كل فريق منهم أنه

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: جمع القرآن) ٦/ ٩٨

على الحق. وفي السنة الثانية والثالثة من خلافة سيدنا عثمان وهي سنة ٢٥ للهجرة أزمع المسلمون على فتح (أرمينية) و (أذربيجان)، فاجتمع هناك أهل الشام وأهل العراق، وكان (حذيفة بن اليمان) قائداً لأهل المدائن، فراعه ما رأى من اختلاف المسلمين في وجوه القراءة، فاستعظم ذلك، وجاء الى المدينة، ولم يدخل بيته حتى أتى أمير المؤمنين عثمان قائلا له:

(يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى...)[1].

وكان قد وقع في نفس عثمان ذلك، بعد ان اختلف بعض المسلمين مع البعض الآخر في وجوه القراءة والأداء، فاستشار الصحابة في جمع الناس على مصحف واحد، فوافقوه على ما رأى، فقام بتشكيل لجنة لجمع القرآن من أربعة من افذاذ حفظته وهم: (زيد بن ثابت)و(عبد الله بن الزبير)و(سعيد بن العاص)و(عبد الرحمن بن الحارث بن هشام). أما زيد، فهو مدني من الأنصار، وأما الثلاثة الآخرون، فهم قرشيون من أهل مكة. وطلب عثمان من أم المؤمنين حفصة إن ترسل له الصحف التي جمعت على عهد ابي بكر الصديق ففعلت. وبدأت اللجنة عملها، بعد أن رسمت لها منهجاً محدداً يتلخص فيما يأتي:

١- اعتمدت الصحف التي تم جمعها في عهد أبي بكر أساساً لنسخ المصاحف.

٢- اعتمدت لهجة قريش عند اختلاف اللجنة في كتابة شئ من القران.

٣- اعتمدت القراءة المتواترة عن النبيﷺ وتركت ما سواها.

٤- التزمت اللجنة في ترتيب الآيات ترتيب النبيﷺ في العرضة الأخيرة في السنة التي قبض فيها عليه السلام.

(١)رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن (باب: جمع القرآن)٦/ ٩٩.

٥- بعد الانتهاء من كتابة النسخة الأولى من المصحف الإمام يقوم (زيد بن ثابت) بمراجعته ثلاث مرات، ويقابله بمصحف أبي بكر، كما يراجعه عثمان بنفسه، زيادة في الاحتياط، وذلك قبل نسخ المصاحف الأخرى.

عدد المصاحف

نسخت اللجنة مصاحف اختلف في عددها: فقيل أربعة مصاحف:احدها الى الكوفة، والثانية الى البصرة، والثالثة الى الشام، وأبقى عنده مصحفا واحداً في المدينة. وقيل هي خمسة مصاحف أربعة الى الأمصار المذكورة ، وواحد للمدينة ، وقيل هي سبعة: ستة أرسلت الى الأمصار: الكوفة والبصرة والشام ومكة واليمن والبحرين، وواحد للمدينة.

ولم يكتف سيدنا عثمان بإرسال المصاحف الى الأقاليم، بل أرسل في الأكثر الأغلب مع المصحف حافظاً: فكان زيد بن ثابت مقرئ المصحف المدني، وكان عبد الله بن السائب مقرئ المصحف المكي، وكان المغيرة بن شهاب مقرئ المصحف الشامي، وكان أبو عبد الرحمن السلمي مقرئ المصحف الكوفي، وكان عامر بن القيس مقرئ المصحف البصري.

أما الصحف الأخرى، فقد اقترح عثمان حرقها ليقطع النزاع، فأيده الصحابة، فأمر بحرق كل ما وجد من الصحف. يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

(لا تقولوا في عثمان إلا خيرا، فو الله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا)[1].

ويقول:

(١)الإتقان ١/ ٢١٠ ومناهل العرفان ١/ ٢٦٢.